

بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلِيَتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن ت وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتُ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾ وَلِيَتَّوَفَّا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتَّوَفَّا لَهُمُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِه وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾

ثماني عشرة آية تنزل تعريفاً بقصة أصحاب الكهف، تتقدمها آية الاستعجاب من عَجَبِ قصتهم في حُسابان، فأيات الله كلها عجب وليست فقط قصة أصحاب الكهف وفيها أعجب منها، ومنها حسب الروايات رأس الحسين عليه السلام المجذوذ حيث تكلم وقرأ آيات من الكهف إلى ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ﴾ فقيل: «أمرك اعجب!»^(١).

(١) نور الثقلين ٣: ٢٤٢ ح ١٥ في الخرايج والجرايح عن المنهال بن عمرو قال: والله أنا رأيت =

ولأن ﴿عَجَبًا﴾ مصدر تلمح إلى أن القصة كانت في حسابان من أعجب العجَب، وعلَّ من عجبها ترك الرسول ﷺ الاستثناء بمشيئة الله لما سئل عنها فقال: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾^(١) اطمئناناً بربه أنه يوحي إليه بها، واستعجالاً لجوابهم، لذلك تتقدم القصة بعد احتباس الوحي ردحاً من الزمن آية التأنيب بهذا العجب ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ ف «أم» عطف على محذوف يناسب المقام ك «أحسبت أنك تملك وحي ربك فقلت: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ دونما استثناء بمشيئته؟ ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾. عجباً؟ فأسرعت في وعد الجواب أم ماذا؟^(٢).

= رأس الحسين ﷺ حين حمل وأنا بدمشق وبين يدي رجل يقرأ الكهف حتى بلغ قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] فأنتقل الله تعالى الرأس بلسان ذرب طلق قال: أعجب من أصحاب الكهف حملي وقتلي وفي ١٦ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب وروى أبو مخنف عن الشعبي أنه صلب رأس الحسين ﷺ بالصيف في الكوفة فتحنح الرأس وقرأ سورة الكهف إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وسمع أيضاً يقرأ: ﴿أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾. (١) سورة الكهف، الآية: ٢٣.

(٢) المصدر ح ٢٩ في تفسير علي بن إبراهيم القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ قال: كان سبب نزول سورة الكهف أن قريشاً بعثوا ثلاثة أنفار إلى نجران: النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن المعيط والعاص بن وائل السهمي ليتعلموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله ﷺ فخرجوا إلى نجران إلى علماء اليهود فسألوهم فقالوا: أسألوه من ثلاث مسائل فإن أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق ثم سلوه عن مسألة واحدة، فإن ادعى علمها فهو كاذب - وهي مسألة وقت الساعة - إلى أن قال: فرجعوا إلى مكة واجتمعوا إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك يزعم أن خير السماء يأتيه ونحن نسأله عن مسائل فإن أجابنا عنها علمنا أنه صادق وإن لم يخبرنا علمنا أنه كاذب فقال أبو طالب: سلوه عما بدا لكم فسألوه عن الثلاث (أصحاب الكهف - موسى وخضر - ذي القرنين) فقال رسول الله ﷺ: غداً أخبركم ولم يستثن فاحتبس الوحي عليه أربعين يوماً حتى اغتم النبي ﷺ وشك أصحابه الذين كانوا آمنوا به وخرجت قريش واستهزؤوا وأذوا وحزن أبو طالب فلما كان بعد أربعين يوماً نزل عليه سورة الكهف فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل لقد أطأت! فقال: إنا لا نقدر أن نزل إلا بإذن الله تعالى فأنزل الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ - يا محمد - أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] ثم قص قصتهم فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ...﴾ [الكهف: ١٠].

لا هذا ولا ذاك ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى . . .﴾ .

وإن في احتباس الوحي عن الرسول ﷺ لطف خفي، وآية هي أعظم وأدل على نبوته من إخباره بقصة أصحاب الكهف أم ماذا؟ فلو لم يكن رسولاً ما أخرجهم في طائل من الزمن^(١) فوحي القرآن وآياته أعجب من هذه القصص!

وتسلياً لخاطره الأقدس تنزل عليه سورة الضحى ﴿ . . . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . . . ﴾^(٢) وإنما احتباس الوحي كنفس الوحي وجهة من التربية الربانية.

فلقد كان الرسول زمن الاحتباس في حالة مزرية مزرعة مريبة، إذ بدر الوحي الحبيب من الحبيب مسلياً خاطر الحبيب ومريباً له ﴿أَمْ حَسِبْتَ . . .﴾ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكُرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾^(٣) وهذا في أخريات القصة لكيلا يفاجأ في بدايتها بنص التنديد، اللهم إلا تلميحاً مليحاً مريحاً: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾؟

لا تحسب أنها عجب وفي آياتنا ما هي أعجب، فأنت بقرآنك ورسالتك في قمة العجب^(٤) ولذلك تفتتح السورة بما افتتحت تقيماً للكتاب ونزوله ومنزله «قيماً» من منزله القيوم فحمداً له كل الحمد^(٥)!

(١) اختلفت الروايات في أنه احتبس يومين أو ٣ - ٤ - ١٢ - ١٥ - ٢٥ - أو ٤٠ والأخير هو

الأقرب كما يأتي عن تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) سورة الضحى، الآية: ٣.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٤) الدر المنثور ٤: ٣١٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في آية العجب: يقول الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم وبنفس رواه عن مجاهد كانوا بقولهم ١ عجب آياتنا ليسوا بأعجب آياتنا.

(٥) لم يكن ذلك الحساب من الرسول ﷺ بل ممن سألوه فهو من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، فقد كان الرسول يعيش أعجب آيات ربه ومنها نفسه المقدسة بقرآنه وسنته!.

ترى وَمَنْ هم أصحاب الكهف والرقيم، هل هم أصحاب الكهف وآخرون أصحاب الرقيم، وقد أهمل عن ذكر الآخرين؟ وهذا خلاف البلاغة في أدناها فضلاً عن أعلاها! فهم جماعة واحدة تعرف بالكهف والرقيم.

ثم الكهف معروف فما هو الرقيم؟ إنه المرقوم وعَلَّه على باب الكهف^(١) تعريفاً بحالهم، ويؤيده قرن الكهف بالرقيم، رقيماً للكهف بأصحابه فهما واحد كأصحابهما جماعة واحدة، لا اسم القرية التي خرجوا منها^(٢) فإنهم تركوا صحبتها إلى الكهف فليسوا من أصحابها! اللهم إلا إشارة إلى الحالتين المختلفتين، ولكن لا تعرف لحد الآن بلدة الرقيم! أو قد تجمعهما الرقيم! رقيماً على باب الكهف رُقم فيه مبدأهم ومأواهم!

وأما أن الرقيم هو كلبهم، فذلك هتك لساحتهم أنهم أصحاب كلب، أو الكلب صاحبهم، ثم لا يعرف كلب رقيم، أَبَعَدَمَا أهمل عن أسمائهم هنا يبرز كلبهم باسمه وهم صحبوه؟!

﴿إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَهُمُ الْكَلِمَاتِ الْحَزِينِ إِحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ :

هذه الثلاث بين الثماني عشرة في قصتهم إجمال عن تفصيل، يضم ما

- (١) نور الثقلين ٣: ٢٤٤ ح ٢١ العياشي عن محمد بن أحمد بن علي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هم قوم فروا وكتب ملك ذلك الزمان بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائهم في صحف من رصاص وفي الدر المنثور ٤: ٢١١ عن ابن عباس قال: الرقيم الكتاب وعن أبي صالح قال: الرقيم لوح مكتوب وعن سعيد بن جبيرة قال: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأمرهم ثم وضع على باب الكهف وعن السدي قال: الرقيم حين رقت أسماءهم في الصخرة كتب الملك فيها أسماءهم وكتب أنهم هلكوا في زمان كذا وكذا في ملك ريبوس في سور المدينة على الباب قول هذا قول جميع أهل المعاني والعربية ثم كما يأتي احتمال آخر للرقيم أنهم ثلاثة من أصحاب الكهف رقوموا خالصات أعمالهم!.
- (٢) الدر المنثور عن ابن عباس قال: الرقيم واد دون فلسطين قريب من آيلة.

فعلوه وقالوه: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ...﴾ وما فعله الله أولاً ﴿فَضَرَبْنَا...﴾ وأخيراً ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ...﴾ طياً لهما باختصار دون احتصار: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ...﴾ ﴿إِذْ أَوَى...﴾^(١) استعراضاً لخطوطها الرئيسية كبراعة استهلال ومن ثم التفصيل.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾^(٢).

(١) ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ دون ومن الرقيم من الشاهد أنه ليس البلدة التي خرجوا منها ثم ولم يأت ذكرها في تفصيل القصة وعلى أية حال فالروايات مختلفة في أنهم جماعة واحدة أم جماعتان وظاهر القرآن الوحدة.

ثم مختلف الروايات في ﴿وَالرَّقِيمِ﴾ أهو اسم البلد الذي خرجوا منه أو الوادي الذي فيه الكهف أو جبله أو اسم كليهم، أو هو لوح من حجر أو رصاص أو نحاس أو ذهب رقم فيه أسماءهم وأسماء آبائهم وقصتهم ووضع على باب الكهف أو داخله أو معلقاً على باب المدينة أو في بعض خزائن الملوك، أو أنه لوحان، اثني عشر وجهاً في الرقيم وما في المتن هو الأنسب والله أعلم.

(٢) في قصة أصحاب الكهف روايات متضاربة بعضها خلاف نص القرآن أو ظاهره، وبعضها لا توافق القرآن ولا تخالفه وثالثة توافق نص القرآن أو ظاهره ومن الثالث إلا في البعض من مواضعها ومن أسلمها ما رواه القمي في تفسيره حدثنا أبي عن ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان سبب نزول سورة الكهف - إلى قوله في القصة - : سألو رسول الله عن الثلاث المسائل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غداً أخبركم ولم يستثن فاحتبس الوحي عنه أربعين يوماً حتى اغتم النبي صلى الله عليه وسلم وشك أصحابه الذين كانوا آمنوا به وفرحت قريش واستهزؤوا وأذوا وحزن أبو طالب فلما كان بعد أربعين يوماً نزل عليه سورة الكهف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا جبرئيل لقد أبطأت؟ فقال: إنا لا نقدر أن ننزل إلا بإذن الله فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] ثم قص قصتهم فقال: إذ أوى الفتية إلى الكهف..

قال: فقال الصادق عليه السلام: إن أصحاب الكهف والرقيم كانوا في زمن ملك جبار عات وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام فمن لم يجبه قتله وكان هؤلاء قوماً مؤمنين يعبدون الله صلى الله عليه وسلم ووكّل الملك بباب المدينة ولم يدع أحداً يخرج حتى يسجد للأصنام فخرجوا هؤلاء بعلّة الصيد وذلك أنهم مروا براع في طريقهم فدعوه إلى أمرهم فلم يجبهم وكان مع الراعي كلب فأجابهم الكلب وخرج معهم.

تطلبوا من الله رحمةً لدنية في البداية ورشداً في النهاية، وكان ﴿رَحِمْتَ﴾ أو منها ﴿فَضَرَيْنَا عَلَيَّ ءَاذَانِهِمْ...﴾: تخلصاً من جبارهم وهم أحياء دونما حاجة إلى شراب وغذاء! وكان ﴿رُشِدًا﴾ أو منه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ...﴾ رشداً لهم ولمن عثروا عليهم!

قال **عَلِيٌّ**: فخرج أصحاب الكهف من المدينة بعلة الصيد هرباً من دين الملك فلما أمسوا دخلوا إلى ذلك الكهف والكلب معهم، فألقى الله عليهم النعاس كما قال الله: ﴿فَضَرَيْنَا عَلَيَّ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١] فناموا حتى أهلك الله ذلك الملك وأهل المدينة وذهب ذلك الزمان وجاء زمان آخر وقوم آخرون، ثم انتبهوا فقال بعضهم لبعض: كم نمنا هاهنا؟ فنظروا إلى الشمس قد ارتفعت فقالوا: نمنا يوماً أو بعض يوم ثم قالوا الواحد منهم خذ هذه الورق وادخل المدينة تنكراً لا يعرفونك فاشتر لنا طعاماً فإنهم إن علموا بنا وعرفونا قتلونا أو ردونا في دينهم، فجاء ذلك الرجل فرأى مدينته بخلاف التي عهدا ورأى قوماً بخلاف أولئك لم يعرفهم ولم يعرفوا لغته ولم يعرف لغتهم فقالوا له: من أنت؟ ومن أين جئت؟ فأخبرهم فخرج ملك تلك المدينة مع أصحابه والرجل معهم حتى وقفوا على باب الكهف وأقبلوا يتطلعون فيه فقال بعضهم هؤلاء ثلاثة رابعهم كلبهم وقال بعضهم خمسة سادسهم كلبهم وقال بعضهم سبعة وثامنهم كلبهم، وحجبهم الله بحجاب من الرعب فلم يكن يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم فإنه لما دخل عليهم وجدهم خائفين أن يكونوا أصحاب دقيانوس شعروا بهم فأخبرهم صاحبهم أنهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل وأنهم آية للناس فبكوا وسألوا الله أن يعيدهم إلى مضاجعهم نائمين كما كانوا.

ثم قال الملك: ينبغي أن نبني هاهنا مسجداً نوره فإن هؤلاء قوم مؤمنون فلهم في كل سنة تقليبان ينامون ستة أشهر على جنوبهم اليمنى وستة أشهر على جنوبهم اليسرى والكلب معهم باسط ذراعيه بفناء الكهف وذلك قوله تعالى: ﴿يَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] إلى آخر الآيات.

وهذه الرواية وهي أسلم روايات القصة قد تخالف آياتها في مواضع: منها: أن المختلفين في عدتهم هم الذين اعثرهم الله عليهم! وهم برؤيتهم على آية حال عارفون عدتهم، و﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ...﴾ [الكهف: ٢٢] تحول الاختلاف في عدتهم عنهم إلى الآتي!. ومنها: نومتهم الثانية، وهم لم يموتوا ولا تحمل نومتهم حكمة والقرآن يحيل اطلاع الرسول عليهم وهم نائمون ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا...﴾ [الكهف: ١٨]!! ومنها: تقليبهم في كل سنة مرتين، وماذا يفيدهم ذلك التقلب البعيد، وإن كان لا تضاد آية التقلب، إلا أنها لا تلائمها، ثم هي بعيدة في الواقع!.

﴿أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ كما أمرهم الله «وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمرهم مرفقاً» وطبعاً بإلهام دون وحي، والأوي تلمح بفرارهم في اعتزالهم عما سوى الله وإيمانهم بالله ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا...﴾ التماساً مما وعدهم وقد حقق لهم، ولم تكن تلك الرحمة وذلك الرشد بالإمكان وهم بين الطغاة المستكبرين.

هنا ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تدل على مدى هيمانهم لرحمة بعدما لا قوا من ضغط بغيض ونقمة، رحمة لدنية عن نقمة شيطانية، ثم تهيئة فيها من أمرهم الأمر رشدًا: لهم وللمن سواهم، ومن رحمته ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ومن الرشد من أمرهم هدى من اهتدى بذكراهم واقتدى بهداهم!

﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾:

هنالك مثلث من زوايا الحياة وراء اليقظة التامة ١ - نعسة يسمع فيها الأذن ضرباً على البصر وهو نوم نسبي، ٢ - ونومة لا يسمع فيها الأذن، والقلب حيّ ضرباً على الأذن، حيث ينام بعد البصر، وهو نوم مطلق.

٣ - موتة عن الحياة الدنيا إلى حياة برزخية ضرباً على القلب، والحياة في مثلثها هذه باقية على درجاتها، وهنالك موتة مطلقة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) ومن ورائها حياة مطلقة ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^(٢)!

﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ هي النوم المطلقة ولكن لا كالعادة المستمرة وإنما ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾!

وترى ماذا تعني ﴿عَدَدًا﴾ و﴿سِنِينَ﴾ وهو جمع، لا محالة عدد؟ قد

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

تعني استقلالاً لما استكثر من سنيهم ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾^(١) فهناك رقعات وموتات أم ماذا من خوارق العادات أكثر من هذا العدد. فالسنين العدد هنا كدراهم معدودة في يوسف (٢٠) ونفياً عن عجب القصة، ﴿أَمْ حَسِبْتَ . . .﴾ أم وزيادة هنا هي أن سنيهم معدودة معلومة كعددتهم! .

إن الضرب التام على الأذن يسبقه نوم البصر ويقارنه نوم القلب دون موته، وقد يعبر عنه بتغشية النعاس التي هي حدث صغير من الأحداث: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ . . .﴾^(١) واليقظات الثلاث في الإنسان: بصراً وأذناً فقلباً لما تُغشى بالنعاس فهناك يتم النوم ويظم، وقد يستمر باستمرار سببه عادياً كما في سائر النوم، أم خارقاً للعادة كما في ذلك النوم، حيث ضرب فيه على آذانهم سنين عدداً حين يضرب على آذان الآخرين ساعات، فلم يكن موتاً ولا كنوم الآخرين وإنما نومة خارقة للعادة^(٢) .

فالضرب على آذانهم سنين إبطال لمفعولياتها في سنين دون صمم، ولكنما الضرب على القلب يبطل حياته فهناك الموت وإن كان إلى أمد كما في عزيز والمختارين من قوم موسى أمن ذا، فهذا أحسن تعبير وأشمله لرقدتهم في سنين، في حين ﴿وَتَحَسَّبُهمُ أَيُّكَانُوا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كأن لم يضرب على أبصارهم وهم مضربون عن الإبصار! فإنما ﴿عَلَى آذَانِهِمْ﴾ فأصبحوا كمن ضرب سماخه فهو موقوذ مأوم ومشدوده مغمور^(٣) .

(١) سورة الأنفال، الآية: ١١ .

(٢) وقد يعنيه «أمانتهم» فيما يرويه الطبرسي في الاحتجاج عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وقد رجع إلى الدنيا ممن مات خلق كثير منهم أصحاب الكهف أمانتهم الله ثلاثمائة عام ثم بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث ليقطع حجتهم وليربهم قدرته وليعلموا أن البعث حق (نور الثقلين ٣: ٢٥٢ ح ٢٩) .

(٣) هذه الخمسة تعني على الترتيب خرق الأذن - ضرب يشرف إلى الموت - مشجوج - المشدوخ الرأس، المغمى عليه، ننقل هذه الجملة الجميلة عن السيد الشريف الرضي من كتابه مجازات القرآن ص ٢٠٨ .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾:

﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ عن نومهم فالبعث ضروب شتى وهو منها: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ (١).

﴿لِنَعْلَمَ﴾ أبعد جهل؟ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾! أم تحقّقاً لمعلومه؟ وغير فصيح ولا صحيح أن يعبر عنه بـ «نعلم»! وهما إذا كان من العلم، أم هو من العلم لنجعل مبعثهم علامة: ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ...﴾ كما في أمثالها العشرة الأخرى في سائر القرآن (٢)؟.

وهذا هو الصحيح الفصيح.

وترى من هما الحزبان؟ أهما حزب الإيمان أصحاب الكهف وحزب الكفر المختلفان في أمد لبثهم إحصاء؟ ولم يسبق ذكر عن حزب الكفر، ولا أنهم بقوا إلى بعثهم، ولا أنهم عرفوا كهفهم حتى يحصوا لبثهم! أم هما من أصحاب الكهف أنفسهم حيث افترقوا فيما أحصوا من لبثهم: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ...﴾.

و﴿أَحْصَىٰ﴾ فعلاً من الإحصاء، فأيهما أحصى وأيُّ ما أحصى، فالمحصى ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ عالمين أنهم لبثوا ردهاً بعيداً من الزمن يعلمه الله، وغير المحصى ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ثم الأولون كملوا إحصاءهم حيث بعثوا أحدهم بورقهم فتبين لهم كم لبثوا؟

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٢) وهو من علم يعلم علماً يعني جعل علامة (لسان العرب)، ومن الشاهد عليه إضافة إلى الآيات المحكمات في الحيط العلمية الإلهية أن «نعلم يعلم» في مواردها الإحدى عشر تدخل إما على مفرد «لنعلم الصابرين منكم» أو جملة كمفرد كما هنا، وهو بكسر العين يدخل على مفعولين.

ثم و﴿أَحْصَى﴾ أفعل تفضيل فهما أحصيا والأولون أحصى من الآخرين، ولكن الآخرين لم يحصوا اللهم إلا ظاهراً من نومتهم بآية الشمس غاربة فيوم أم زائلة فبعض يوم! (١).

وجهان أولهما أوجه ولثانيهما وجه بعيد أو عليهما معنيان أن الآخرين أحصوا وإن كان إحصاؤهم لا يحسب بشيء، والإحصاء الصحيح العلم أنهم لبثوا أمداً بعيداً لا نعلمه، ثم الأصح الأعلم ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتُمُ﴾ إحصاء أو لا إحصاء غلط، ثم إحصاء صحيح، ومن ثم إحصاء أصح هو من الله.

﴿تَحْنُ نَقْضُ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٣)
وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ
إِلَّهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ :

إلى مشهد التفصيل من قصتهم شرحاً لما أجمل، أترى هنا تفصيلاً عن كل ما حصل من غث وسمين؟ وهذه حكاية تاريخية وليست قصة! وإنما ﴿نَقْضُ﴾ قصاً ﴿نَبَاهُمْ﴾ فالنبا خبر ذو فائدة عظيمة، والله يقص أنباء ما قد مضى من غيرها، اصطفاء للمفيد منها نبراساً ينير الدرب على العالمين.

هنالك في التأريخ مزيج مما يفيد: «أنباء» وما لا يفيد أو يقل، ومن المفيد ما هو حق وما هو باطل (٢) والقرآن يقص منها أنباء الحق ﴿تَحْنُ نَقْضُ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ قصا بالحق عما هو حق مصاحباً لذكرى الحق (٣) حقٌّ صُراح لا يشوبه باطل في أي حقل!

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ...﴾ : مربع من التعريف برجال القصة: «فتية - آمنوا -

(١) قال أبو علي الفارسي: «أحصى» ليس من باب أفعل التفضيل لأن هذا البناء من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس.

(٢) فقد يختلق أمر فيه تقوية لجانب الحق ولكن الغاية لا تبرر الوسيلة.

(٣) بالحق هنا حال من القص ومن البناء وظرف للقص بباء المصاحبة.